من روائع أدب الغرب

الانسان

L'HOMME

لشاعر الحب والجمال لامرتين

للأديب حسين تفكجي

— ١ —

« أرسل إليك يا صاحبة السمو ، قبل أن أضع رأسي على الوسادة ، الكتاب الصغير الذي تفضلت باعارتي إياه البارحة ، ويكفيك أن تعرفي أنني لم أنم وبقيت ساهراً ، حتى لاحت تباشير الصباح ، وخرجت طيور الفجر من أعشاشها ، لأتم قراءته ولأطلع على ما احتواه بين جلدتيه ، من روائع للمعاني ، وجميل القول . سوف لا أتنبأ لك بشدة تأثيره في أذواق الجمهور من القراء إذ يكفي أن أجمل من نفسي ذلك الشعب الذي سيطلع على هذا الكتاب لأقول : إن هناك رجلا ، وسيشغل الكثير من صفحاتنا »

« من كتاب تاليران إلى الأميرة تالون »

— ٢ —

« وعقب مدة قليلة أثار هذا الكتاب فضول الطبقات الراقية في الروسية . فان النبيلات تجادلن وتسابقن لاقتناء نسخة منه ؛ فالتي خانها الحظ ولم تحظ باقتناء هذه النسخة ، كانت تكتب في دفترها مقاطع من أجمل الأشعار التي قالها لامرتين ، وتجبر نفسها على حفظ أشياء منها . فالسعيد من اقتنى كتاباً من (التأملات) إذ كان يحرص عليه كمن يحرص على مفتاح النجاح وطريق السعادة

« من مذكرات أتون شي »

— ٣ —

يا لجريمة لامرتين الفظيعة! فهو سبب نصف جنون ، فنساؤنا يردن أن يكن أمثال إلهير

« نكد أصابنا البرد وألزمنا الفراش أياماً طويلة ، لأننا أردنا أن نتمثل شعره ، فسرنا على شاطىء البحيرة الزرقاء ، نتأمل جمال القمر في السماء ، وبدائع أمواج الماء ، وروائع الطبيعة على الغبراء ، في الليالي الباردة التي كانت تحمل إلينا معها نسيم الليالي الفارة التي قطعها لامرتين ، بينما عوامل الأمراض تنازعنا قوانا وتتسلط على أجسامنا »

« إن لامرتين واللورد بيرون ، أدارا رؤوس نساء الجيل الحاضر ، ولفتا أنظارهن إلى عظمة الوجود والحب »

« الكونتس داش »

— ٤ —

أيها الشاعر الباكي ، أيها الناظم الشاكي ، أيها المؤلف الغائب عن عيني ، إنك رمز الجبن والخوف

« فما أشبهك بورقة خريف جففت يد القدر خضرتها ، وجردتها من رائع نضرتها ، تناقلها نسمات النهار الباردة بين وديان غير معروف مداها ، وجبال غير مفهوم منتهاها ، تحط دون أن تعرف أين ، وترقب النسيم ليرفعها من مكانها إلى حيث لا تعرف إلى أين !

ما ذا يحوي شعرك من جمال ؟

ما الذي يضم بين أبياته من نضرة ؟

لا شيء !

ما معنى الشاعر المحتضر ؟

قصيدة يأس من الحياة وخوف من النضال من أجل الوجود .

أيها الحيوان الباغم ، لست أول نائح على أريكة خضراء ، فقد سبقك كثيرون ، ولكنك كنت موفقاً في التعبير عما تكنه جوارحك

« موريس ألبر »

* * *

آراء متناقضة ، سطرتها أقلام كتاب متباينين ، لتقدير مزايا ومساوئ شاعر ، فمنهم من تأمل في قطعة الخلود ، وعرف في شعره معنى الحياة ، وفهم بين أبياته مفهوم الحقيقة ؛ ومنهم من حمل على هذا الشاعر الباكي الذي لا يرى فجر الحياة إلا من وراء منظار أسود ، ولا يتأمل وجه البسيطة إلا بالنشيج والبكاء . فكل ما يقع تحت عينيه يرمز إلى ذلك الحب الذي قضى وحل اليأس مكانه في سويداء الفؤاد

نحن لم نأت بهذه الآراء لنوازن بينها ، ولنميز بين حسنها وقبيحها ، بل أتينا بها لأنها تعبر عن موجة الأفكار التي اجتاحت عصره ، وعن الأثر الذي أحدثه كتابه الصغير « التأملات » الذي أصدره الشاعر ، فنترجم قطعة من شعره سماها « الانسان » وأهداها إلى اللورد بيرون الشاعر الانكليزي الذي قتل في حرب استقلال اليونان ، والذي كان لامرتين معجباً بشعره ، مأخوذاً بقوة ألفاظه إذ قال : اللورد بيرون في نظري هو أكبر شاعر

عرف الطبيعة فى زمننا الحاضر . إن من شعره ما يسكرنى ، وإن من بيانه ما يسحرنى ، إذ وجدت فى أقواله خيوط أمل تربط أصواتاً تجيش فى صدري ، وتفور فى سويدائى »

ولكن بالرغم من أن تفاؤل لامرتين يقابله شك بيرون ، فان الشاعر لم يجد مانعاً من أن يرسل هديته إلى نقيضه فى أقواله لأنه أراد أن يجره إلى أفكار أقل شيطانية من أفكاره الأولى — فهل أصاب أو أخطأ ؟ لا نعرف ! بل نحكم عليه بعد قراءة الشعر الذي أرسله إلى الشاعر الشاك

الانسان

— ١ —

أنت الذي يجهل العالم اسمك الحقيقى ، أيها الروح الخفى الشاك . مهما كنت يا بيرون شيطاناً أو ملاكا ، عبقرية ميمونة أو مشؤومة ، فان أغانيك تصوب إلى نفسي بريق الأمل ، وتحمل إلى روحى دعة الخيل

أعشق فى أشعارك الخالدة أنغامها الغريبة كما أعشق ضوضاء العاصفة المحتدمة ، الذى يمتزج بهدير الصاعقة ويمازج مع أصوات الشلالات المنحدرة

إلى الليل تأوى ، وإلى الرعب تلجأ

ما أشبهك بجبار الفضاء ، وملك الصحاري ! بالنسر الذى يكره السهول ولا يهوى سوى الصخور الوعرة ، التى ألبستها يد الشتاء ثوبها الناصع ، والتى تفتتت تحت ضربات الصواعق المتوالية . يجد لذته على شواطئ غطيت بحطام البواخر الغارقة ، وملئت بأشلاء السفن المحطمة . ويذهب عنه حزنه مرأى الحقول المخضبة بدماء المعركة . بينها البلبل الفريد ، ينشد أسقامه ، ويغنى آلامه ، وهو يبنى عشه على شواطئ السواقى الجاريات ، بين الحقول الزاهرات

يحب النسر لذته فوق قمم الأنوس ، التى تخترقها الذرى الحادة كأسنة الرماح ، فيشق فضاءها بجناحيه ، تاركا ظله يرتسم فوق الهوات الفاغرة فاها . وهناك وحيداً يصيخ لصيحات الفريسة المتعالية التى تحيط به أعضاؤها المختلجة ، فوق صخور تقطر زواياها دماً . وعندما تحتدم رياح العاصفة ينام مسروراً فوق بقاياها

— ٢ —

ما أشبهك بنسر السماء هذا يا بيرون !

فان أصوات اليأس أجمل أغانيك

الألم هدفك ، والرجل ضحيتك

سبرت بعينك كالشيطان غور الهوة طيلتها نفسك ، غمرت بعيداً عن الإله والأضواء ، بعد أن ودعت أملاً راحلاً . فأنت مثله اليوم تسيطر على الأرجاء المظلمة ، والأصقاع المعتمة . فاجعل عبقريتك التى لا تقهر تعلو بلحن جهنمى ، وتنشد أنشودة الظفر تحت ظلال عرش إبليس الشر

— ٣ —

ولكن أية فائدة تجنى من نضال النهاية المحتمة ؟

بأى شيء يدفع العقل العنيد القدر ؟

ليس لك كالعين ، إلا أفق محدود !

فلا تسدد جميل أنظارك إلى أبعد من هذا المدى ، ولا تقدح زناد فكرك دون نفع وسدى ، فتجد كل شيء منا يفر . الكل ينطفئ كالشمع . الكل يمحى من الوجود . ولكن كيف ؟ ولم ؟ من يعرف ؟ فان يديه القادرتين قبضتا على الوجود والبشرية ، ونثرتا فى حقولنا الغبار ، وجعلتا الأضواء والظلام والأنوار . فهو يعرف ما يعمل . وهذا يكفى فالكون تحت إمرته ويده ، وليس لنا سوي اليوم الذى نعيش فيه

إن جريمتنا هى أننا بشر ، فينا فضول المعرفة .

ولكن الجهل والخضوع هما قانونا هذا الوجود .

بيرون ! إن هذه الكلمات قاسية عليك .

ولكن لم التراجع أمام الحقيقة ؟

إن شرفك أمام الاله هو أنك صوغ يديه ، فاشعر واخضع فى سجنك المقدس .

أنت ذرة محمولة ، تموج فى هذا النظام السالمى ، فتتم إرادته بطاعتك ، لأنك مخلوق بارادته ، وحياتك تمجد هذا الوجود الذى تموت فيه ، حيث مصيرك .

أواه بعيداً عن الاتهام . قبّل ذلك الرسف الذى تحاول تحطيمه ، واهبط من صفوف الآلهة التى تذهب جرأتك ، فالكل جيد ، والكل جميل ، والكل عظيم فى مكانه . ففى ناظر خالق الوجود تحوى الحشرة عالما بنفسها .

— ٤ —

ولكنك تقول إن هذا القانون يثير عداءك ، ولا يعدو فى نظرك من هوى غريب ، وشرك نصب ليكبو العقل فى كل خطوة يخطوها .

لنعترف بذلك يابيرون دون أن نحاكمه .

ما أشبهني بك . فعقلي انغمر في الظلمات ، ولكن ليس على أن أشرح لك حقيقة العـالم ، فالذي أبدع الوجود يلقنك الدرس الوافي .

كنت كلما سبرت عمق الهوة ضعت في ضبابها.

وفي هذه الدنيا لم أر سوى الألم يرتبط بالألم، والنهار يتبع سير النهار ، والشقاء يلازم ظل الشقاء ، والانسان السخيف بطبيعته ، اللامتناهي بتذوره ، إله زل من عليائه، يفكر في سمائه .

حرم مجده القديم ، فاحتفظ من مقدراته الضائعة بالذكرى وغور ميوله السحيق يتنبأ عن عظمته المقبلة .

اذا علا أو سفل ، فالانسان . عميق .

مقيد في سجن الحواس ، على هذه الأرض . أسير يشعر بان له قلبا ولد يتنشق نسيم الحرية .

فياله تعساً يتململ بالأماني .

ويريد سبر غور العالم ، بناظريه الضعيفين

ويود أن يعشق دائما لولا أن ما يحب سريع الفناء .

كل فان يشبه طريد جنة عدن ، عندما طرده الآلـه من الجنـة السماوية ، فلمح بنظره الحدود المشؤومة التي تحيط به ، فجلس باكيا على الأبواب المقفلة دونه . سمع من بعيد ، من المسكن الالـهي زفرة الحب الخالدة ، ونغمات السعادة ، وأغاني الملائكة المقدسة ، تصل إلى أحضان الالـه لتمجد فضائله ، فهبط من السماء ، ثم أطلق نظراته من عنانها ، فوقعت على مصيره المؤلم ...

— ٥ —

يا لبؤس من يسمع أناشيد عالم يهواه وهو تاء في منفى الحياة السحيق !

يرى الطبيعة تناضل خمر الخلود التي ارتشفها

يتأرجح كالحلم ، عندما يرى الحقيقة ضيقة في مكانها ، والمستحيل واسعا في فضائه ، والروح مثقلا بالميول لا يجد مأوى يغرف منه حباً وعلوماً أبداً . والرجل في محيط الجبال والنور ، ظمآن ، لا يروى غله ، فيسكر بالأحلام ، كي تعذب رقدته ، ويعود إلى نفسه إذا ما فاجأته يقظته

— ٦ —

وا أسفاه ! ما كانت آخرتك ؟ وما هي مقدراتي ؟

فقد شربت مثلك ، كأس الشك مترعة

وعيناي كعينيك ، فتحتا الأجفان دون أن تنظرا !

فبحثاً فتشت عن كلمة الوجود . طلبت أسبابه من الطبيعة . سألت آخرته من كل مخلوق . واستفهمت من القلم حتى ألم . فرجع طرفي كليلا ، ونظري حسيراً ، قبل رؤية قرار هوة العالم

كشفت غطاء الأزمان التي هرعت ، وأرجعت الأجيال التي مرت ، ماراً بالبحار ، مردداً أقوال الفلاسفة ، ولـكن العـالم بقي أمامي ، كما هو أمام علماء اللاهوت « كتاباً مغلقاً »

ولأتبين كنه الطبيعة كنت أفر بروحي إلى أحضانها

وخيل إلي أني أجد معنى لهذه اللغـة الغامضة ، فدرست القوانين التي تدور حبها ، أجرام السموات ، فكان نيوتن يعتمد عيني في سهولها النيرة. تأملت بقايا رفات العواهل ، ورأيت رومة تندثر في ظلمات قبورها المقدسة ، والقديسين وقد أقضت مضاجعهم. وزنت بيدي رفات الأبطال ، وطلبت منه معنى الخلود الذي يأمله كل البشر ، ولـكن لم أجد في هـذا الغبار الفاني معنى الخلود

ما ذا أقول ؟

لازمت سرير الموتى ، لتفتش نظراتي عن معناه في العيون المحتضرة

وعلى هذه الذرى التي توجتها الثلوج مدى الدهر

وفوق هذه الأمواج التي خططتها عواصف الرياح

ناديت دون مجيب

اقتحمت عثار الأحجار وظننت كالعرافة أن الطبيعة بمشاهدها النادرة سـترى إلينا بإحدى عجائبها، فأحببت أن أغمر نفسي في هذه الرغبات الصامتة التي تتوالى

ولكني ، في سكوتي وهياجي ، فتشت عبثاً عن كنه هذا السر العظيم ، فرأيت في كل مكان إلها لا أفقهه . رأيت الشر أثر الخير دون خبرة ، ودون هدف يسيران كالصدفة ، رأيت في كل مكان الشر يختار ، فجدفت بحق السماء دون معرفة ، فرن صوتي ولاحق السماء كالصدى المدوي ، ولكنه لم يرهب القدر ، ولم يغضب المصير

« البقية في العدد القادم »

جميل تفكجي